حوار

جاد الحاج عن الهجرة والشعر والحرب:
الظروف القاسية لا تبرر استقالة المثقفين من دورهم

جاد الحاج شاعر وكاتب من جيل السبعينات، ابان الحرب، عندما بدأت تتكشف انكسارات احلام ذاك الجيل، والبلد عموماً، وكذلك الرؤى والتطلعات، غادر الى "عالم" يحكي لغته ويفهمها. او بالاحرى غادر جاد الحاج البلاد التي ما عادت لغتها لغته، ما عادت تسمعه وتفهمه.

وفي الغربة تلك نضجت تجربة الشاعر مقرونة بشخص الشاعر وثقافته وتغيراته واحواله. فكانت تجربته الشعرية الخاصة.

عن الهجرة والبلاد والشعر اليوم، وعن المثقفين هذا الحوار:

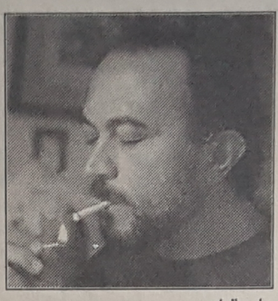

جاد الحاج.

● ابان الحرب ١٩٧٨ غادرت لبنان، أكان هذا موقفاً من الحرب او من اسباب الحرب؟

– السبب الاول كان عدم قابليتي على الانضواء في مجتمع معاكس كلياً لنشوئي وتطوري كانسان. لقد نشأت على ان المجتمع الماضي، مجتمع الطوائف، ولسبب ربما كان في رأسي وحسب، هو آيل الى الاندثار، واذ فجأة يكون العكس. ومجرد ما يسيل بعض الدم ينهض الفينيق الذي نحلم بأن يبعث الوطن والانسان، ينهض ويذبح "على الهوية"... كيف اعيش في هكذا مجتمع.

فجأة احسست انني اخرس، ولا لغة بيني وبين الناس. وفي هذه الظروف، من تكون اللغة اداته الاساسية والوحيدة يصاب باحباطين، الاول: انعدام تواصله مع الآخر؛ والثاني: انعدام التعبير.

● والهجرة، أكانت الحل، في البداية كما في محصلتها؟

– الهجرة ليست حلاً ولا بطولة او مرحلة. الهجرة مجرد مواجهة الشرط الانساني الذي تجد نفسك في مواجهته، في مأزق لا مفر منه. ويصبح البحر امامك والعدو وراءك، والعدو، للأسف والسخرية والمفارقة، هو أهلك وشعبك وناسك.

تعذر ايصال ما تريد ايصاله بمثابة الانتقال من عالم الى آخر، قسراً. انا اذكر اول اربع مقالات كتبتها في "الاسبوع العربي" دارت حول نقطة واحدة، هي موت الكلمة. ففي ظل ما حصل ماتت الكلمة، ولا مكان لها.

والشخص الذي "شغلته" الكلمة ماذا يفعل؟ إما يحمل رشاشاً، واما يسافر! والمأساة ان لا وجود لفريق ثالث، اذا جاز لنا القول، فريق يقول للكل: هذا غلط. ولدى هذا الفرق وزن، او ملجأ. الفرز كان حاداً، وانا هربت من الفرز ذاك.

● لكنك كتبت، في هجرتك، الشعر، هل يعني هذا حفاظك على "اداتك" التعبيرية، او انك استعدتها هناك؟

– الشعر لا يكتب او تختار كتابته ووقتها. الشعر حدث شبه بيولوجي لم اقصد مرة واحدة ان اكتب قصيدة. القصيدة تجد طريقها بنفسها. وتكون قد اختزلت نفسها، ثم تغلي وتأتي لحظتها.

انا لا افهم ما يقال حول المشروع الشعري. فلان صاحب مشروع شعري، مثل شخص صاحب مشروع سكني في مكان ما. انا ليس لدي مشروع شعري. هذا ليس همي.

الاسلوب

● على هذا، هل تفكر في الاسلوب، او بالتقنية؟

– في شكل قليل. اقل ما يمكن، في نمو الشخصية والثقافة والمعرفة وتنامي الاتصال ينمو ايضاً الاداء. ويغدو بالامكان اكتشاف مكامن الضعف ومراكز القوة. عندها يصبح في الامكان العمل للتخفيف من الضعف.

والشعر، كذلك، يتغير مع الوقت، ومع ظروف الحياة ومكان العيش. وتتغير نظرة الشاعر للاشياء، فالتقدم في السن يقنن الانفعالات وتصبح اقل سرعة وامتن صلة بالعقل.

● الشاعر والشعر ابنا نفسهما؟ كأنك تغلب الشخصي على الثقافي؟

● تقريباً، قصائدي التي اكتبها الآن كأنها جديدة، في اكثر من معنى، نسبة الى قصائدي القديمة. ليس في الموضوع فقط، بل في اسلوب التعاطي مع القصيدة وطريق ادائها.

● اذا كنت لا تهتم بالتقنية، ما المهم بالنسبة اليك في القصيدة؟

– اكثر ما يهمني هو غنائية القصيدة. الاكتشاف صوت داخلي للقصيدة، لكل قصيدة على حدة. كأنها شخصية مستقلة متميزة وحدها. ولا اعني بالموسيقى، الموسيقى الداخلية بالمعنى التجريدي، انما ان يكون للقصيدة ايقاع. وهذا غير مقرون بالوزن.

● الا ترى ان تجربتك وقصيدتك تجاوران تجارب وقصائد اخرى؟

– ما حصل معي من ترحال مستمر ابعدني عن التلاقح مع الذي يجري ضمن العالم العربي، ولو نظرياً. شعري خارج المدارات المنتشرة هنا.

المدارات

● في الشعر، مدارات، ومنتشرة؟

– طبعاً، هناك مدارات تتأثر ببعضها اكثر من اللازم. ما حصل بعد الحرب ان الانفتاح اللامشروط على العالم انسد وتوقف. وهذه هي المشكلة الثقافية الكبرى. في السابق كنا على صلة مباشرة وسريعة بالعالم وما يحصل به. لا تابوات ولا حدود مقفلة. الآن صار العالم آخر، واذا ما قبل به يدخل عبر ابواب محدودة، ويصل متأخراً.

والتخلف الذي حصل خلال الحرب التخلف التواصلي. وهذا اوجد بؤراً وشللاً وميليشيات ومتاريس.

ليس الموضوع ان "الخارج" افضل منا وعلينا الاحتذاء به، انما ان نتصل به، نراه بعين جديدة ونقوم بالمقارنة. الموضوع هو ان نقعد مع الدنيا على مستوى واحد.

لكن الذي يحصل اليوم، هو سيادة اعلام تلفزيوني تافه يؤثر في الاجيال والعقول سلباً، ويجعل الاعتبارات مغايرة للثقافة، لثقافتنا.

● وكيف ترى الثقافة عموماً والشعر خصوصاً في بيروت اليوم وتقوّمهما؟

– بعد الحرب صعدت مواهب عديدة ولافتة. شخصياً صفقت بحرارة وفرح ليحيى جابر، احببت شعره الاول. واحببت نثر شارل شهوان المميز بلونه الجديد والاميركي العصري. وهناك آخرون غيرهما.

لكن المشكلة اين؟ ان الجميع، وليسوا ملامين، مجبورين على العمل في الصحف والاذاعات. توقف الغذاء الثقافي. وهذا اهدار لامكانات التطور. ما حصل من تكريس باكر ومبكر اوقعهم في حال من الاسترخاء والفرح. ما عادوا يطلبون الجديد، توقفوا عن الطحش. وصاروا يدورون حول انفسهم.

هذه المشكلة لا تعالج الا بادراك المثقفين المخضرمين مسؤولياتهم، وهم ليسوا هكذا لأنهم منعزلون في ابراجهم. ومن جهة اخرى على الشباب ادراك ضرورة التواصل مع السابقين. فلا بداية من العدم.

● هذا تحدٍ، وشبه اخلاقي، وايضاً سياسي؟

– هذا تحدٍ، وهو في نظري يعادل التحدي الذي كان قبل الحرب حينما وجد المفكرون والمثقفون عموماً انفسهم امام خطر انهيار البلد. والنتيجة هي ان الخاسر الاكبر هو العقل اللبناني المتنور الذي، يبدو، انه ما زال عاجزاً عن النهوض من كبوته.

وأكاد اشعر ان لا وجود لمثقفين لبنانيين. وان هناك مثقفين يسكنون لبنان.

الدور

● هذا يعني انك ترى دوراً للمثقفين، ما هو؟

– بالانتاج الثقافي وبخلق حركة: ثورة. حركة تأخذ في الاعتبار ما حصل في البلد والعالم. فاذا كان السياسيون يرغبون في التعتيم على اسباب الحرب، والتصرف كأن شيئاً لم يكن، فعلى المثقفين ان لا يوافقوا على هذا، ان يكشفوه ويحاولوا معالجة اسباب الحرب، كي لا تعود بعد سنين.

الواضح ان التركيبة السياسية القائمة حالياً غير مهتمة بغد الانسان، وهي مهتمة بخدمة مصالحها قصيرة المدى على حساب الناس ومصالحهم. المثقفون بمَ مهتمون؟

● باوضاعهم الاقتصادية. بامورهم الشخصية؟

– افهم الظروف الاقتصادية، وافهم انعكاساتها على المثقفين، لكن هذا لا يبرر الاستقالة من دورهم.

عندما يكبر الهم يكبر الموضوع ويصبح الشغل على النص اصعب ونتائجه افضل. واذا كان الهم صغيراً يصغر النص.

● من هنا: ما معنى الكتابة اليوم، ان تكون شاعراً؟

– الاهم ان شكل القصيدة كان لديه قوة معينة عبر العصور، ورغم كل ما يحصل من تجديد في ادوات التعبير ووسائل الاتصال، ما زال هذا الشكل صاحب سحر معين غير موجود في اي مكان آخر. مثل الرسم بالزيت والرسم على الكومبيوتر لأيهما السحر والقيمة، فقيمة الفن ليست منوطة بالتغيرات التكنولوجية. التكنولوجيا في خدمة الفن وليس العكس.

على ان العواطف الانسانية لم تتغير. ما تغير هو محصلة العقل البشري. تغيرت اشكال كثيرة، انما الحب والكره والغضب والاشتياق، وما الى ذلك من عناصر الشعر والقصيدة، ما زالت حية.

● تبدو متحمساً للعودة الى لبنان، والبقاء هنا؟

– احب ان اعود، لكن لدي ظروف تحتاج الى تعديل لأتمكن من العودة والبقاء. البلد جميل في شكل مخيف، وبشع في شكل موجع، وهذا التناقض، او الفصام في شخصية البلد جذابة ومنفرة في آن واحد. فمن جهة اقول هذا بلدي، وهؤلاء ناسي وذاكرتي واحلامي هنا. ومن جهة اخرى اقول انني صرت مواطناً عالمياً، لدي اعتبارات ثابتة حول امور مبدئية يمارسها الناس كل يوم، وليس في سهولة يمكن التخلي عنها. وهنا يكون عذابي مزدوجاً، عذاب المواطن في السير، وفي الدوائر الحكومية، وفي انعدام مظلة القانون؛ والعذاب الثاني عذاب الانسان الذي عاش في مجتمع مدني وتطبع باخلاقه وعاداته ويرى ما يراه هنا.

حسان الزين